فردوس الإسلامي المفقود

تحت قناطر جامع قرطبة

للشاعر الألماني هنري هين

(مهداة إلى الأستاذ الزيات)

ترجمة الأستاذ معروف الأرناءوط

محرر فتى العرب ومؤلف سيد قريش

« . . . أيتها القبة الرفيعة المنار ، لقد ظللت فى الماضى بيت الله . . . » « هنرى هين »

أرأيت يا سيدى السائح إلى مسجد قرطبة الجامع ! أرأيت إلى تلك السُمُد المرمرية وقد نهضت على قبابٍ فيحاءَ واسعة الأرجاء ؟

أرأيت إلى مفاتن الفنّ العربىّ وقد راحت تطفو على القباب والحنايا والقناطر ؟ أرأيت إلى سُوَرٍ من القرآن كيف أذابها الذكاء فى شتى الألوان ؟

فى سبيل الله ، وفى سبيل مجده الذى لا يَبْلَى قام هذا الصرحُ المُشمَخرّ ثم تَنَكَّرَ الزمن وحَطَمت نواحيه ، فتنكرت الأشياء وجهمت المشاهد ، وأرعد فى الأفق الذى تسرب اليه صوت المؤذن حلوا صافياً ، صوتُ النواقيس ، وقام الرهبان يدعون فى أغانيهم الشجية الكئيبة إلى المسيح فى محراب كان إلى الأمس مزهواً بالمؤمنين ، واملأت السُّوح بالدُّمى والتماثيل ، وتقاصرت ظلال الشمس أمام أنوار شاحبة تريقها الشموع والمصابيح !

* * *

وقف « المنصور بن أبى عبد الله » فى مسجد قرطبة تحت القبة المرمرية وهو يحدّق فى السُمُد والحنايا هادئاً ناعم الجأش ، ثم مضى يتخافت بصوته :

« أيتها القبة الرفيعة المنار ، لقد ظللت فى الماضى بيت الله ، ثم عدت اليك فرأيتك تظللين بيتاً غريباً ، ثم أصغيت اليك ، فاذا بك ترددن صلاة ما كانت لسُنَاك الأولين !

لقد هَدْهَدَ الزمن حماسك ، وأطفأ كبرياءك ، فجمدت على خطبك الكريه ، وصبرت لبؤسك الأليم ، ولكن نفسى وقد صاغها الله من معْدِنٍ ضعيف ما زالت — وارحمتاه لها — ملتاعةً أسوانة حتى أعجزها اليأس عن الصبر فما عادت تطيق شجنها الجاهد ! »

* * *

وانثنى الفتى العربىّ إلى الماء المقدّس يمسح به رأسه ويغسل جبينه ، ثم جفا المسجد وراح إلى فرسه فنهض على ذؤابته فانطلق به يعدُو فى الطريق ، وأخذ الهواء المستفيض فى الأفق يعبَثُ بغدائره المُرْسلة ويلاعب ريش قبعته المطرّزة !

أشرف الفارس العربىّ على طريق القلعة حيث تجرى أمواه الوادى الكبير متطامنةً هادئة ، فبدت له الخضرة والرياحين والأعناب وشجر اللوز الباسق المتهدّل وأزهار البرتقال الكاسية الضافية فلذّ الغناء فغنى ، وراحت نغماته العذاب تختلط بأغانى الطيور !

وإنه لكذلك إذا قصر القلعة يلوح له عن بعد ، فطفر إليه مستروحاً إلى غناء رقيق يستفيض من حواشيه !

فى هذا القصر عزلات هانئة آوت اليها « كلارا الفاريس » وهى فتاة طفّارة وثّابة فارق أبوها مَغْناه إلى أرض « الثائر » فاستَشْدَى الفَرَق فى المرح والأهواء خلال غيبته عن القصر !

وقف المنصور بن أبى عبد الله فى ناحيةٍ دانيةٍ من القصر وطفق يُصْغى إلى عَزِيف لذّ هادئ ، وقد بَهَرَتْهُ الأنوار وأشجته الأعراف ، فَتَمايَدَ من الطرب ، وأمّ ناحية القصر يريد التوغّل فى جَنّتِه بين ورده وأقحوانه !

وكان القصر يمج بالحسان والفرسان ، فزرف المنصور اليه فاذا هو بين الراقصين والراقصات والمغنّين والمغنيّات ، ثم عاد ينظر إلى نفسه فاذا هو أملح فرسان هذه الليلة الساهرة شباباً وأعذبهم حديثاً ، بل لقد كان أمْضاهم فى الاغراء والاستهواء ؛ ولما استوثق من فتون عينيه ، مضى إلى هذه الأسراب الناعمة الطفّارة ، يحدث غانية عن حُبٍّ أجَنَّهُ فى قلبه وحَرَصَ الأيذيعه إلاّ على مِسْمعٍ منها ، حتى إذا أملّه العبث والمجون ، طفر إلى غانيةٍ أخرى فاحتبسها بين ذراعين محمومتين مشبوبتين ، ثم شمر بالملل فارتد عنها إلى ثالثة يعانقها ويخاصرها تحت قباب من المرمر ، ثم جفاها إلى أختها ملولا من هوى شديد التقلب !

وكان يمضى إلى حسناء من حسان القصر فيسألها إن كانت

عنه راضية ، وبه ناعمة ، ثم يومض بيديه وعينيه إلى صليب من الذهب يَخْطَف بريقه على صدره ، ويقسم للكاعب اللعوب أنّ مكانها من صدره مكان هذا الصليب ! وإنه لنصرانيته على وفاء غريب !

* * *

سكن القصر ، فسكنت فيه اللذّات والأهواء ، وانطفأت تحت قبابه الأنوار والأضواء ، وانقلب الفرسان إلى مضاجعهم صرعى هوى وصهباء ، وخلا القصر إلا من ربته الحسناء ، وفارسها العربيّ ذي البهاء ، وإلاّ من شموع ضعيفة السنا والسّناء !

جاست الحسناء الاسبانية إلى فراش ناعم وثير ، والفتى العربيّ جاثم على ركبتي الحبيبة ، صريع مهد وأرق ، يُريدُ عينيه على إغفاءة لذيذة فتمّلس هـــذه الاغفاءة اللذيذة من عينيه الضحوكين !

وإنه لسادرٌ في حمّى شديدة من أرق شديد ، إذا تلك الحسناء اللعوب تريق على غدائره ماء الورد من قوارير حفّت بالعجب ، وازينت بالذهب ، وهي بعد مترعة سكرى من الحبّ والطرب ، لقد كانت تفعل ذلك سادرة حيرى ، والفتى العربيّ غريق هواجس وأحلام ، وشهيد ذكريات وأوهام ، وكان صدره يلوح لها محتدماً مشبوباً تمزّقه الزفرات ، وتقطّعه الآهات !

ثم ابتعث الحبّ في قلبها سكراً فسلبها صحواً ، فأقبلت إلى فتاها تسعى ، وراحت تَلْثمُ شفتيه وقد عادتا كالشظى ، وهو في سبحه غريق حُبٍّ وهوى

وَحدّقت إليه مبهولةً واجمة ، فرأتْ على جبينه وقد عاد مسقوعاً مقروراً غمامةً بلون الدجى ! فشجيت حتى لقد هدّها الشجى ، وبكت وانصبّ دمعها على جفنيه فاستفاق راعشاً من هذا الندى !

لقد هزّته وهو يَحْلم ! بلى لقد كان يَحلمُ ! وقد رأى في حُلمه القصير كأنه لا يزال في مَسْجدِ قرطبة الجامع ، وَخيل إليه أنه لا يبرح يطوف بالماء المقدّس يغسل به جبينه كأنه عريقٌ في النصرانية فأشجاه هذا الذي تمثل ورأى ، وشعر بأن جوانب المعبد تميد ميْداً ، وأن ألوف الأصوات أخذت تطفو على نفسه فلا يستطيع لها ردّاً !

ثم خيل إليه أنه يسمع قعقعة المِسُد ، وصليل القباب وهي تنهار ، كأنّ مسجد قرطبة الجامع قد عاف عيشه الخابي ، فتداعى مَغيظاً مُحنَقاً

وتمثّل الناسَ والرهبان وآلهة النصرانيـة وقد طوّحت الأنقاض ، فاستفاق راعشاً ، وانطلق يمدو في القفر البعيد النواحي شاجناً ناشجاً ، وقد خلفَ حُبَّهُ في القصر يائساً

معروف الارناؤوط

مشروع علمي جليل : سلسلة المعارف العامة

اعتزمت لجنة التأليف والترجمة والنشر اخراج كتب لطيفة الحجم يتناول كل كتاب منها موضوعاً خاصاً علمياً أو أدبياً ؛ وترمي بذلك إلى تكوين سلسلة تشمل جميع النظريات الحديثة في الجغرافيا والتاريخ والفلسفة والتربية والطبيعيا والكيمياء وغير ذلك ؛ وقد سلكت في ذلك طرقاً مختلفة ، فأحياناً تترجم كتباً أجنبية إذا رأتها صالحة كل الصلاحية وأحياناً تؤلف في الموضوع بما يتفق وذوق الجمهور العربي

وقد بدأت هذا الشهر في اخراج أربعة كتب :

(الأول) عرض تاريخي للفلسفة والعلم تأليف ا . وولف وترجمة الأستاذ محمد عبد الواحد خلاف ، وهو كما يدل عليا اسمه نظرة عامة في تاريخ الفلسفة والعلم من بدء نشأتهما إلى الآن . وثمنه ٦ قروش صاغ

(الثاني) الآراء الحديثة في علم الجغرافيا تأليف ل . دولي ستامب وتعريب الأستاذ أحمد محمد العدوي مدرس الجغرافيا بالجامعة المصرية . وثمنه ٦ قروش صاغ

(الثالث) سكان هـــذا الكوكب تأليف الدكتور محمد عوض أستاذ الجغرافيا في الجامعة المصرية يبحث في سكان الكرة الأرضية من بني الانسان من حيث نشأة النوع البشري وتعدد الأجناس ونمو السكان وتوزيعهم على سطح الأرض مع دراسة تفصيلية لحالة السكان ومشاكلهم في مختلف الأقطار . وثمنه ١٢ قرشاً صاغاً

(الرابع) كتاب « البراجماتزم » أو الفلسفة الأمريكية تأليف الأستاذ يعقوب فام . وثمنه ١٢ قرشاً صاغاً